أربعة عشر قرنا...

وأول ما يبده الفكر والوجدان أن يمضي على ظهور الإسلام أربعة عشر قرنا ونيف... لم يضعف ولم ينحرف ولم يضل الطريق.. بل يزداد قوة ومضيًّا وعطاء وكثرة أتباع.. دين لا يمكن أن يقضي عليه خصومه أو يوقفوا حركته في عشر سنين أو عشرين – كما يتوهمون – تلك أمانيهم وظنونهم.. فبئست من أمان وخسئت من ظنون!!

أربعة عشر قرنا وأمة هذا الدين تجابه التحديات الخطيرة.. فتستجيب لها، وتخرج منها ظافرة مرفوعة الرأس.. عالية الراية.. قامتها فوق القامات، وأهدافها فوق الأهداف.

مشركو الوثنية بقيادة رجال الملأ من قريش... اليهود.. المنافقون.. مرتدو الوثنية بقيادة أدعياء النبوة والزعامات الكاذبة..نظم الطواغيت في بلاد كسرى وقيصر.. الصليبيون.. المغول.. المستعمرون القدماء.. والمستعمرون الجدد.. موجات إثر موجات، يتكسر عنقها الشرس اللجوج على صخرة هذا الدين فترتد زبدا وغثاء.. ولا يبقى إلا عطاء هذا الدين الذي ينفع الناس... أربعة عشر قرنا.. وهم يقاتلون هذا الدين في محاولة مديدة متواصلة لرد أبنائه عنه.. لا يرضون له أن يمضي إلى غايته التي رسمها له الله سبحانه، ولا لأبنائه أن يختاروا لهم طريقا غير طريقهم.

أربعة عشر قرنا ونداءات القرآن الكريم تحذر وتنذر،.. فما من لحظة سيلقى فيها السلاح ويكف الخصوم عن البغي والكيد:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ﴾ [البقرة:٢١٧].

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ [البقرة:١٢٠] .

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف:٨] .

والله متم نوره ولو كره الكافرون!!

فلتقر عين أتباع هذا الدين ولترغم أنوف خصومه.. فإن النصر لن يكون إلا لهذا الدين!!

تلك معادلة واضحة يقولها الله.. ويؤكدها التاريخ.. وتؤكدها أربعة عشر قرنا من الصراع الذي لا يرحم، والنتيجة الواحدة التي لا تتغير أو تتبدل مهما عظمت التضحيات وغلى الثمن وطال السرى - أن ينتصر الإسلام ويعلو.. وأن ينتشر نوره في الآفاق!!

* * *

هل ثمة من دين أو مذهب اجتاز رحلة الأربعة عشر قرنًا، أو حتى القرن والقرنين، دون أن تتشعب به المسالك وتنحرف الطرق وتضل الأهداف؟! عشرات الأديان والمذاهب.. قطعت خطوات قصيرة في الزمان والمكان.. وما لبثت أن تعرضت لأكثر من محنة، فلم تصمد لها، فتمزقت وتفتتت وانحرفت عن الطريق.. وعشرات غيرها أشبعها الوضاعون والكهنة والمرتزقة دجلا وشعوذة وترهات، لتحقيق مصلحة أو بلوغ حاجة.. قبل أن تقطع بعضًا من الطريق الطويل..

والإسلام هو الإسلام.. وكتابه هو الكتاب.. وسنته هي السنة.. وهدي خلفائه ورجالاته هو الهدي.. ليس ثمة إسلامان ولا كتابان ولا سنتان.. ليس إلا إسلام واحد وكتاب واحد وسنة واحدة.

يمضي على ذلك أربعة عشر قرنا.. أو أربعة عشر ألفًا من السنين!! فالأمر سواء..

فليطمئن أتباع هذا الدين الذين زاد عددهم على الألف مليون مسلم.. وليخسأ الخصوم الذين يتصورون، أو يصور لهم الذين يحركونهم من وراء ستار، في ساعة حلم شيطاني.. أن بمقدور قوة في الأرض أن تسحق هذا الدين.. أن توقف حركته.. ليطمئن الأتباع.. وليخسأ الخصوم.. فالله متم نوره ولو كره الكافرون !!

* * *

إن هذا الدين يحمل عوامل ديمومته واستمراره.. وهذا أمر بديهي.. فما دام الله سبحانه قد أراد له أن يكون الدين الأخير.. فمعنى هذا أنه سبحانه قد أمده بعناصر القوة والشمول والحيوية والديناميكية، ممَّا يجعله قديرًا على التواصل مع أجيال البشرية المتعاقبة. جيلا بعد جيل.. وسواء مر على ظهور الإسلام قرن واحد أم أربعة عشر قرنا، أم مائة وأربعون قرنا.. فإن هذا الدين سيظل يحمل ما منحه الله سبحانه من قوة وحيوية.. قديرا على الصمود حيثما يجب أن يكون الصمود، بصيرًا بمطالب الحياة البشرية في كل مكان وزمان.. متمكنًا من الامتداد والانتشار هنا وهناك.

إنه دين الفطرة الذي يتعامل مع الإنسان على أنه إنسان، معجونة في تكوينه قوى الروح والمادة.. والطبيعة والغيب.. والثبات والحركة.. والغرائز والأشواق.. والفاني المحدود بالأزلي الخالد..

ويتعامل مع الطبيعة والعالم كشفًا عن سننهما ونواميسهما التي أودعها الله فيهما، وسعيا من أجل تحقيق الوفاق المرتجى بين الإنسان والعالم..

ويتعامل مع التاريخ على أنه حركة متجددة لا تعرف حرانًا ولا سكونًا.. إنه المنظور الإلهي المعجز الذي يعرف كيف يتعامل بهذا الدين مع الإنسان، والطبيعة، والتاريخ،.. وإنه لن يخشى أبدا على دين يعرف كيف يمد جناحيه لكي يغطي مطالب هذه الأقطاب جميعا..

فما دام الله قد صمم هذا الدين و (أكمله) على يدي رسوله الكريم، ليكون دين البشرية الأخير.. فمعنى هذا أنه قد أريد له أن يظل باقيًا ما تنفس إنسان على وجه البسيطة.. دائما ما طلعت الشمس من مشرقها.. خالدًا ما دامت السماوات والأرض!! ولن يُخشى عليه!!

* * *

قدرة فذة على مواجهة التحديات:

وعبر الأربعة عشر قرنا التي انقضت أثبت هذا الدين قدرة فذة على قبول التحديات وهضمها وتمثلها، سلمًا وحربًا..

لقد جُوبِهَ هذا الدين منذ فجره المبكر بردة شرسة قاسية.. فاستجاب لها وخرج منها أكثر صلابة وتوحدا، وانطلق إلى العالم غير عابئ بنذر كسرى وقيصر،.. فلما تم له الانتصار عليهما عبر فترة زمنية قياسية تثير التأمل والإعجاب.. عرف كيف يفتح صدره لتراث الأمم والشعوب ومعطياتها الحضارية.. عرف كيف يتعامل معها وفق معاييره الواضحة الحاسمة، فيأخذ ما يمكن أخذه ويرفض ما يتوجب رفضه.. إنه ها هنا في ساحات السلم والعطاء، كما هو هناك في ساحات الحرب والشهادة.. قدير على الاستجابة للتحديات، غير هارب منها أو ناكص عنها.. إنه دين التقدم والحركة والاقتحام.. ولن يتردد إزاء شيء أبدا.. سلمًا أو حربا.. وعلام التردد وهو يملك من عوامل القوة والأصالة والشمول ما يجعله قديرًا على أن يصهر كل ما يعترض طريقه بالنار التي تحرق والنور الذي يضيء؟!

وطيلة القرون التالية وهو يتعرض لتحديات قوى كانت في كثير من الأحيان تفوقه عدة وعددا.. ولكنه كان دائمًا المستجيب لتحديها، المتقدم لمجابهتها.. والمنتصر عليها في نهاية الأمر.. وليس ثمة من لا يعرف الذي فعله هذا الدين وأتباعه إزاء هجمات الصليبين وغزوات المغول.. ردَّ الأولى على أعقابها واحتوى الثانية.. فإذا بالغالب القاهر يتقبل الانتماء للدين الذي تصور أنه غلبه.. ويخضع له ويطيع!! وهي تجربة تاريخية تكاد تكون (نادرة) بين التجارب.. أن يخضع الغالب للمغلوب!! ولكنها في حقيقة الأمر ليست نادرة.. فإن السر يكمن في عبقرية هذا الدين..

* * *

واليوم، وهو يطل على قرنه الخامس عشر، يجد نفسه محاصرًا بألف تحد وتحد... إن الاستعمار الجديد والمادية الملحدة يضيقان الخناق عليه بالغزو الفكري والتخريب الأخلاقي والتدمير الاجتماعي والاستنزاف الاقتصادي والصراع الإستراتيجي..

والصهيونية - التي فاقت أشد العنصريات في التاريخ صَلَفًا ووحشية وأنانية وغرورا - تضع كافة إمكاناتها جنبًا إلى جنب مع هذين الخصمين لسحق هذا الدين وإبادة أتباعه، أو إضعافهما وشلهما على الأقل..

وغير هؤلاء وهؤلاء عشرات، بل مئات من الضغوط والتحديات.. ترى.. هل سيقدر للإسلام هذه المرة أن يخرج من المعركة الطاحنة ظافرًا منصورًا؟

نعم!! وإنه لمن (البديهيات) في عمر هذا الدين ذي الأربعة عشر قرنا أن يخرج ظافرًا منصورًا حيثما وجد نفسه في وضع (المتحدى).. طال الوقت أم قصر.. فالعبرة - كما هو معروف- بنتائج الأمور وأخرياتها، لا ببداياتها الأولى حيث تغيم الرؤية وتنقطع أنفاس ذوي النفس القصير.. لقد ازداد الإسلام بمرور القرون قدرة على الرد.. وتراكمًا في الخبرات، مما سيهبه- ولا شك- فاعلية أكبر في المجابهة والاقتحام..

إنه يملك اليوم (خبرة) أربعة عشر قرنا من العمل والصراع والتجربة والعناء والمقاومة والاختبار.. ولن تذهب هذه الخبرة عبثًا بمجرد أن تصدق النية، ويصح العزم، ويخلص الإيمان..

ترى.. أيمكن القول بأن الإسلام يوم أن يستقبل قرنه التاسع عشر أو العشرين من عمره المديد، سيكون أكثر قدرة على الاستجابة للتحديات والتفوق عليها؟!

* * *

وعبر مسيرته الحافلة ذات الأربعة عشر قرنًا.. كان الإسلام قديرًا - أبدًا- على التجدد والانبعاث، وكلما ادلهم خطب وذرت الفتنة قرنها، وكاد اليأس أن يأخذ بتلابيب النفوس والأرواح.. برز رجل أو انبعثت حركة.. فما يلبث هذا الدين أن يجد من ينطلق به إلى آفاق جديدة.. فيزداد قوة.. وتمكنا.. وأصالة..وعطاء.. حتى لقد أصبح من المسلم به أنه على رأس كل قرن هجري سيجيء من يقوم بالدور الموعود.. رجلا أو جماعة أو حركة.. فيمضي بالموكب المبارك إلى مواقع جديدة متجاوزا به المنزلقات والعقبات والأشواك!! إنه دين يحمل في تركيبه المعجز القدرة الأبدية الخلَّاقة

على التجدد والانبعاث.. بل إن هنالك ما هو أعجب من هذه الظاهرة في تاريخ هذا الدين وتركيبه.. ذلك أنه حيثما خسر المعركة، أو انحسر وتراجع في جهة من الجهات، تحرك في جهات أخرى لكي يحقق أكثر من نصر فيعوض هنا ما خسره هناك.. ويكون في نهاية التحليل هو الفائز في حساب الخسائر والأرباح!!

إن الأربعة عشر قرنًا التي تشكل عمر هذا الدين غنية بالشواهد على هاتين الخصيصتين اللتين تميزان هذا الدين فيما تميز به من معالم وسمات.. القدرة على التجدد والانبعاث والقدرة على التعويض..وإنه ما من دين أو مذهب في التاريخ امتلك هاتين القدرتين بالسعة والديمومة والعمق التي امتلكهما بها هذا الدين العظيم..

ولن يغني الكلام هنا عن متابعة (شاهد)... التاريخ نفسه..

خبرة الماضي:

ونحن نوغل في القرن الخامس عشر الهجري.. باتجاه المليار وخمسمائة مليون عددًا من المسلمين.. نتذكر الدعوة في أيام محنتها الأولى.. زمن الأفراد القلائل المضطهدين.. المطاردين.. ونتذكر الرجل الأول الذي صنع المعجزة.. ونتذكر وعد الله بالنصر المبين ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

إذن فقد صدق الله وعده.. ولن تكون أكاذيب الأرض كلها بقادرة على أن تعكس صدق هذا الدين وقدرته الأبدية على الانتصار..

لقد زرعت يا رسول الله، وزرع معك أصحابك وتابعوك بإحسان.. عبر عشرات السنين ومئاتها يحرثون الأرض ويلقون البذور.. ويزرعون.. وكانت أبصارهم وعقولهم معلقة بالله.. ما من كبيرة ولا صغيرة إلا وهم يتحركون بها من خلال رؤيتهم الإيمانية التي ترى وجود الإنسان في العالم امتدادًا لإرادة الله وقدره، وكانوا يريدون إعادة صياغة العالم.. وقلب تربته العفنة التي غطت على مساحاته.. قلبها من الأعماق، وإظهار التربة الجديدة .. التربة النقية؛ لكي تكون الثمار نظيفة قوية معطاءة ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩].

ولقد كان الحصاد عظيمًا حقًّا ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم].

ورغم أن العالم اختار أن ينقلب على صوتك المؤثر...أن يمرق عن صراطك المستقيم.. رغم أنه أعاد قلب التربة -ثانية- لكي يغطي جغرافية القارات كلها بالعفن والفساد فلا يتبقى ثمة ما هو نظيف طاهر.. رغم هذا وذاك.. فإن طائفة من أمتك ستظل تواصل الطريق، وسيظل أملها معلقًا بالله.. أن تعيد صياغة العالم ثانية وثالثة ورابعة إلى أن يتحقق النصر الموعود.. وهو لابد آت ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران].

إننا ونحن نوغل في القرن الخامس عشر المبارك بإذن الله، نتذكر أنه ما من قرن تصرم من هذه القرون الأربعة عشر، كان أتباع محمد عليه السلام فيه عاجزين عن الحركة.. عن أن يعملوا شيئا.. إنه ما من قرن إلا وتبرز منهم طائفة ترفع الراية، وتتحرك بإيمانها الفذ ويقينها الوضيء لكي تثبت مواقع هذا الدين وتمدها إلى الآفاق.

* * *

لقد كانت رحلة الأربعة عشر قرنا مسيرة صعبة قاسية، باهظة الثمن كثيرة التكاليف.. لكنها كانت في الوقت نفسه كثيرة العطاء... وإنه ليس ثمة جزاء كبير دون جهد كبير.. ولقد بذل أبناء هذا الدين، عبر كل قرن، الكثير والكثير.. جهدا وعرقا ودما ودموعا، فلم يذهب هذا كله عبثا... لقد أتى ثماره، وملأ الدنيا عطاء سخيًّا...

الدعوة التي كانت تتحرك في طرقات مكة خائفة وجلة، أصبحت تقول كلمتها بمواجهة عروش كسرى وقيصر فتسقطها وتذلها... الصلوات التي كانت تقام سرًّا في دار منزوية في أنحاء أم القرى.. صارت تقام على شواطئ الأطلسي وتخوم الصين.. يطمح أصحابها أن يجتازوا البحر والتخوم لكي لا تبقى مساحة في العالم لا تقام فيها صلاة ولا يذكر فيها اسم الله... المستضعفون في الأرض الذين كانوا يطاردون

ويضطهدون ويعذبون ويجلدون.. غدوا قادة العالم وساسته وحكامه.. كتاب الله الذي كان يُحكم بالقتل على قارئه أصبح دستور الدنيا ومرشدها..

لقد كانت مسيرة باهظة التكاليف حقًّا، ولكن الجزاء كان كبيرا!!

* * *

إنه ما من أمة في الأرض تعرضت عبر مسيرتها التاريخية لما تعرض له أبناء هذا الدين... لقد تكالبت عليهم قوى العالم كله، منفردة حينا ومتجمعة أحيانا، وإنها لتختلف وتتنازع وتتناحر فيما بينها حتى إذا كان الأمر قتالا لهذا الدين فإنها تأتلف بقدرة قادر لكي تضرب عن قوس واحدة.. منذ معركة الأحزاب حيث تجمع اليهود والوثنية العربية والبدو والمنافقون.. وحتى الثلث الأول من القرن الخامس عشر الذي آذن بانقضاء، حيث تتجمع معسكرات الصهيونية والمادية والصليبية والاستعمار الجديد.. كان الإسلام هو هدف الخصوم والبؤرة التي تجذبهم إليها..

ولكنه كان دائما هدفا صعبا، وكانت دائما بؤرة شديدة الجمر تعرف كيف تحرق الأيدي التي تمتد إليها لكي تطفئ سراجها الوهاج..

واليوم.. وقد انقضى من القرن الخامس عشر الهجري ثلاثة عقود.. نتذكر طوابير الخصوم والأعداء.. حشود المهاجمين والغزاة والمستعمرين..

وإنها حقًّا لطوابير وحشود كثيفة لا نكاد نميز أولها من آخرها.. ولكننا كنا – رغم هذا التواصل الزمني الشرس لضرب الإسلام واستئصال شأفة المسلمين- كنا غالبًا المنتصرين، وتلك منة من الله.. يجب ألا نغفل عن شكرها لحظة واحدة..

إن هذا الدين يحمل سر بقائه المعجز وديمومته الفذة، ولن تستطيع قوة في الأرض أن تمحق كلمته من الوجود.. لقد حدث عبر الأربعة عشر قرنا الماضية أن هزمت كل الحشود والطوابير التي سعت لاغتيال هذا الدين، وبقي الإسلام صامدًا متفردًا ماضًيا لتحقيق كلمته في العالم.

* * *

إن رحلة الأربعة عشر قرنًا تمثل رصيدًا كبيرًا من تجارب الخطأ والصواب.. والواجب علينا كمسلمين أن نراجع أنفسنا ونعيد النظر في معطيات المسيرة الطويلة ويقينا فإننا سنتعلم الكثير والكثير.. وهل ثمة أكثر خبرة من التاريخ؟ هل ثمة أكثر عطاء ومنحًا من هذا الزمن المترع ذي العمر الطويل.. والذي يمكن بدراسته وفهمه أن نستخلص أبعاد التجربة ونكشف مؤشرات العمل والحركة عبر القرن الخامس عشر الذي نعيشه؟؟ إن أمة لا ترجع إلى نفسها لكي تنقد ذاتها، أمة غير جديرة بالحياة، وإن أمة لا تلتفت إلى ماضيها في نهاية كل شوط من الرحلة التاريخية الطويلة، أمة غير قادرة على المضي في المشوار إلى غايته..

إن الحفر والعقبات والمتاريس في طريق المستقبل كثيرة.. ويزيدها كثرة أننا أمة تكالبت عليها الأمم، فإن لم تستمد من تاريخها الهادي والدليل فقد يخشى عليها ما تنبأ به الرسول المعلم عليه السلام.. أن تغدو في مستقبلها القادم قصعة يزداد المولمون عليها.. إن هذا القرن ولا شك قرن الصراع الدولي الحاسم في ميادين العقيدة والإستراتيجية.. والإرهاصات واضحة بينة قد أخذت تطل برأسها منذ العقد الأخير من القرن الرابع عشر.. والخارطة العالمية لمواقع الأمم والشعوب ستزداد ألوانها عمقًا وتميزا.. ولن يكون لنا خيار في أن نتميز، نحن الآخرين، وإلا امتصَّنا هذا اللون أو ذاك وأصبحنا نبحث عن مواقع الأمة الإسلامية في العالم فلا نكاد نجد لها أثرا.. ثمة ظلال باهتة للأصفر ذات اليمين وللأحمر ذات الشمال.. وقد منحنا ديننا الصبغة التي تميزنا بين الأمم وتمنحنا الهوية واللون على خرائط العالم.. ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة].

إن هجمات القوى المضادة للإسلام، كما يبدو من المقدمات، ستزداد عنفًا وشراسة مع الأيام.. وقد تداعت علينا، متفقة أو غير متفقة، معسكرات المادية والصليبية والصهيونية والإمبريالية، ومن يدري فلعلها قد اعتزمت أمرا أكبر بكثير وأخطر بكثير من كل تخميناتنا وتوقعاتنا.. فلنكن على حذر ولنجعل من هذا القرن قرن النفير العام للدفاع عن الذات بمواجهة الإفناء المحتمل، ولتعميق ملامح الشخصية بمواجهة عمليات الطمس والتشويه..

* * *

إن (توينبي)، مؤرخ الحضارات المعروف، يقول: إنه من بين بضع وعشرين حضارة بشرية شهدها التاريخ، لم يتبق غير سبع، ستة منها - ومن ضمنها حضارتنا الإسلامية- مهددة اليوم بالابتلاع والتلاشي في كيان الحضارة الغربية.. وسواء صح هذا الذي استنتجه الرجل، بعد رحلة استقرائه ذات الثلاثين عاما، أم لا، فإن الذي يحدث على مستوى الواقع هو أن حضارتنا، أو بقايا حضارتنا بتعبير أدق، مهددة فعلا بالتفكك والتلاشي والزوال.. ولا ندري إن كان هذا القرن سيكون قرن الاحتضار أم الميلاد الجديد؟.

وسيكون القرار الأخير بأيدينا.. إنه قد مضى إلى غير رجعة زمن الإسقاط والهروب، يوم كنا نتخذ من الاستعمار مشجبا نعلق عليه كل هزائمنا ومتاعبنا، وكأننا لم نكن نحن بقابليتنا للاستعمار- كما يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي رحمه الله- قد مكنا للاستعمار في نفوسنا وبلادنا..

إنه قد آن الأوان لكي نصحح المسار فنعترف بالخطأ مهما عظم من أجل أن نعد أنفسنا للمجابهة النهائية الحاسمة على كل الجبهات.. وحينذاك يمكن أن نسد كل ثغرة قد يتسلل منها الخصم في مشارف حدودنا الشاسعة أو تخوم نفوسنا الضائعة..

* * *

مفاتيح التغيير:

والمفاتيح التي منحنا إياها هذا الدين للتمكن من المجابهة والتحقق بالانتصار واضحة بينة، إنها على وجه التحديد مفتاحان لا ثالث لهما: التغيير الذاتي على مستوى النفس، والإعداد الذاتي على مستوى الجماعة.. وإنهما بتعبير الرسول المعلم عليه السلام: جهادان: جهاد أكبر ضد هوى النفس وانحرافاتها لتحريرها وتمكينها من التزام الصراط.. وجهاد أصغر ضد الخصوم والأعداء على مدى العالم كله لتحريره من الطاغوت وتمكينه من التزام الصراط..

ولقد قالها القرآن الكريم بوضوح لا مزيد عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الأنفال:٥٣]، وفي مقابل عملية التغيير الذاتي هذه ألزمنا بأن نعمل على التحقق بالاستعداد اللازم للجهاد الآخر: القتال على أرضية العالم لتنفيذ كلمة الله في الأرض ..

وقالها بوضوح لا مزيد عليه: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

وثمة سورة بكاملها سميت بسورة الحديد، ولهذا دلالته ولا ريب.. ونقرأ إحدى آياتها ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٣٥] فإذا بها تحمل مؤشرا واضحا على مدى اعتماد خام الحديد وهو واحد من أخطر خامات الأرض، لأغراض التسليح.. إن الدولة التي تملك خام الحديد تستطيع- كما هو معروف – أن ترهب أعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسليح الثقيل، وتستطيع- أيضا- أن تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعتها..

ونتذكر هاهنا آيات من سورة سبأ يرد فيها ذكر الحديد: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠-١١].. نتذكر نعمة الله على نبيه وعبده داود بتسييل الحديد له أو بتعليمه كيف يسيل الحديد وهي بصدد الحديث عن البناء والإعمار والتصنيع، ونتذكر- أيضا- ذا القرنين وهو ينادي الجماعة المضطهدة: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾[الكهف: ٩٦-٩٧].. ويلفت أنظارنا، في آية سورة الحديد آنفة الذكر، إلى ذلك التداخل العميق والارتباط الصميم

بين إرسال الرسل وإنزال الكتب معهم وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس، وبين إنزال الحديد الذي يحمل في طياته البأس والمنفعة، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم الله ﴿مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥].. وهكذا، فإن المسلم في هذا العالم لن تحميه وتنصره إلا يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتصوغه من أجل الحماية والنصر، وهو، بمجرد أن يتخلى عن موقفه الفعال هذا ويختار مواقع الفرار والانتظار الاتكالي لمعونة الله، فإنه يتناقض مع نفسه وعقيدته، وسيهزم لا محال ما دام قد أشاح عن هذه الحقائق القرآنية التي تكاد تصرخ بأعلى نبرة أنه بدون الاعتماد الواعي المسئول البصير بمصادر القوة والبأس فلن يكون هناك نصر أو حماية للموازين العادلة التي جاءت الأديان لتنفيذها في الأرض حتى ولو حبس المؤمنون أنفسهم في المساجد السنين الطوال يبكون ويتضرعون.

لقد جربنا أن نتسول السلاح من الشرق والغرب، وأن نتذلل لهما ونمنحهما الكثير من الحقوق والامتيازات والأموال.. فلم نستطع أن نحقق الانتصار المرتجى.. لأن الكلمة النهائية في استخدام أكداس السلاح المشتراة ظلت بأيديهم، ولأن القدرة على مواصلة استخدام هذه الأكداس ظلت بأيديهم أيضًا.

أفلم يحن الوقت لكي نتعلم من الخطأ الذي مارسناه مرة ومرتين وثلاثا.. وعشرين، وأن نحذو ولو مرة واحدة حذو أمم مثلنا تمكن أبناؤها- بالاعتماد على أنفسهم- من تحقيق وجودهم في العالم؟

إنهما مفتاحان للنصر لا ثالث لهما.. فهل يكون هذا القرن بداية جادة للدخول بواسطتهما من الأبواب التي ظلت موصدة في وجوهنا عشرات السنين ومئاتها؟

وثمة ما يوحي بالأمل، فإن كسور الحضارة المادية المعاصرة وشروخها ستزداد اتساعًا وعمقًا عبر الأيام والسنين.. إن معاناتها المكثفة أخذت تتضح أكثر فأكثر في العقود الأخيرة، وهي لا ريب ستأخذ طريقها وفق متوالية حسابية، وربما هندسية، لكي تتضاعف على مستوى الكم والنوع على السواء.

والذي يؤكد هذا هم الغربيون أنفسهم، سواء منهم الذين انشقوا على هذه الحضارة وبدأوا يوجهون إليها نقداتهم، أم الذين يعيشونها يومًا بيوم فيقدمون بسلوكهم وتجاربهم مثلا حيا على الأزمة الضيقة التي تأخذ بخناقها.. وهؤلاء وأولئك ليسوا أناسًا عاديين أو همـلا ولكنهم من قادة الفكر ورءوس المجتمعات الغربية، وأقوالهم يجب أن تؤخذ على محمل الجد.. إنهم رجال من مستوى إشبنجلر وتوينبي وكولن ولسون وبرنارد شو وكامي وهمنغواي وماسينيون وارويل وكوستلر وجيوروجيو وليوبولدفايس وفيتز جيرالد وغروترود شتاين وسوليفان.. مؤرخون وأدباء وعلماء وفلاسفة، وقد وقفنا عند بعض شهاداتهم وحللنا دلالاتها في غير هذا المكان فلا داعي لإعادة القول فيها.. والمهم هو أن (الشهادات) التي تدين الحضارة العلمانية المعاصرة ستزداد تنوعًا واتساعًا عبر السنين القادمة، وستجعل إدانة هذه الحضارة أكثر عنفا ووضوحًا.

وفي مقابل هذه الشهادات والإدانات ثمة الكثير مما قاله الغربيون أنفسهم عن مستقبل الإسلام.. وهي أقوال يتوجب علينا ألا نحملها محمل الجدّ الكامل؛ لأن القوم- هناك- يتمنون ويتنبأون هروبًا من الأزمة التي تأخذ بخناقهم.. ولأن أقوالا كهذه قد تخدرنا عما نعانيه فعلا، وتعلق أحلامنا وأهدافنا وأمانينا باليوم الموعود الذي تغنى به الغربيون.. ولن يصنع اليوم الموعود إلا عقولنا وسواعدنا.. ومن ثم فإن أهم ما يمكن أن نفيده من شهاداتهم تلك هي تأكيد حقيقة أن العالم يعاني- فعلا- أزمة قاسية وأنه بحاجة- فعلا- إلى قارب النجاة.. قبل أن يموت أو ينتحر غرقًا..

والمسألة- كما هو واضح- ليست في إيجاد البديل، فهاهو ذا ساطع بَيِّنٌ كالشمس والقمر.. ولكنهم- لأكثر من سبب- لا يعرفونه تمامًا ولا يقدرونه تمامًا.. وإذن فإن المطلوب في العقود القادمة هو تحقيق القدرة على التوصيل..

إن الاستعداد للتقبل سيزداد اتساعًا مع الأيام.. والفراغ الناتج عن معطيات حضارة لا تعرف الله والإنسان سيزداد عمقًا.. والتاريخ يصنعه أحيانا توقيت ذكي لإصابة الأهداف.. وها هي ذي الأهداف المواتية تدعونا، فلنعد للأمر عدته، فإن

كسب رجل مثقف من عالم الغرب - رجل على مستوى جرمانوس أو دينيه أو ليوبولدفايس أو بوكاي - لهو كسب كبير يزيد في رصيد الإسلام مرتين، مرة بانتماء الرجل إلى هذا الدين، ومرة بتوظيف قدراته لتوصيل اقتناعاته وآرائه الجديدة إلى بني جلدته بلغتهم نفسها واقتناعاتهم ذاتها..

* * *

ومع الأمل الذي تبعثه فينا حاجة العالم المعاصر إلينا.. ثمة إضاءات قرآنية تنقدح في طيات المستقبل الغامض كومضات النجوم الساطعة في السماء البعيدة.. وقد غدا الوميض البعيد، عبر مراحل متعددة من تاريخنا ذي الأربعة عشر قرنًا من العمر أمرًا واقعًا.. نارًا في قلب العالم، على مساحات واسعة من أرضيته... تحرق وتضيء في الوقت نفسه.. ولكن كيف؟

ليس بالأماني والظنون والأحلام.. يقينًا.. ولكن بالفعل والتحقق والتجريب والممارسة والجهد والمقاومة والحركة..

وما لم نعمل عقولنا وسواعدنا لإشعال النار المقدسة في صميم العالم، فإن قبسها سيظل معلنا هناك في السماوات النائية، حيث تغرق الدنيا في الظلام.. لننظر إليها ولنعرف الطريق الذي يتوجب أن نسلكه لتحويل الكلمات المضيئة إلى أفعال مضيئة، والنذر المتوعدة إلى نار مشتعلة.

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [إبراهيم].

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء].

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ ﴾ [الأعراف:١٣٧].

﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨] .

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص] .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٥٥ ﴾ [النور:٥٥].

* * *

دين الحركة والمستقبل:

والإسلام هو دين الحركة.. والتقدم.. والتشوف الأبدي إلى الأمام.. إلى المستقبل.. من أجل إعادة الوفاق مع سنن الكون ونواميس العالم.. ونحن نتحرك باتجاه جديد يتوجب أن ندرك هذا جيدا- فالمسلم- إذا أردنا الحق- هو التقدمي الوحيد!!

إن الإسلام يمثل موقفا في قمة حركة التاريخ؛ لأنه دعوة لاكتشاف الحركة والتوافق معها.. ليس مع حركة التاريخ فحسب كما تسعى الماركسية، ولكن مع نواميس العالم والكون كله.. ولو شعر المسلم الجاد أنه يقف في موقف ساكن، أو رجعي، لغادره مباشرة.. وبكل قوة.. هذه القوة التي تنبثق من كونه ينتمي إلى العقيدة التي تجعل منه الإرادة الفاعلة في العودة بذاته وبمجتمعه وبالبشرية عمومًا إلى طريق التوافق والتقدم- من ثم- بزخم عظيم يتولد- بالضرورة- من التقاء الطاقات الإنسانية والمادية في إطار التوافق، وليس تصادمها وتقاطعها وتفتتها.. التقدم إلى كشف أعظم وخطوات أوسع وبناء أكثر ديمومة ورسوخًا يقام على هذا العالم..

لو أن المسلم الجاد شعر لحظة بأنه يقف في موقف رجعي أو ساكن لتخلى عنه توًّا،

ولكنه يشعر بأنه يتحرك في قمة المسيرة التاريخية دائمًا؛ لأنه ملبٍّ لكلمة الله التي تقوده وتحدوه.. ومن، غير الله سبحانه، يقدر على تحديد مواقع الرجعية، والسكون، والتقدمية.. الله الذي يعلو على مواضعات الزمان والمكان النسبية، ويستشرف، بعلمه المحيط، صيرورة الكون والتاريخ والحضارات؟

لقد تحدث عشرات الوضعيين، بل مئاتهم، منذ عهد أرسطو وسقراط وأفلاطون، حتى عصر برجسون وديوي وتوينبي وسارتر، مرورًا بماركس وإنجلز وهيجل وكونت وبلاييف وغيرهم.. تحدثوا عن مفاهيم الحركة، وكلٌّ اتخذ موقفًا إزاءها، وحدد على ضوء موقفه ما هو رجعي ساكن (ستاتيكي) وما هو حركي تقدمي (ديناميكي).. موقفا يختلف بدرجة أو أخرى، عن مواقف الآخرين.. فمن منهم يا ترى يكون مصيبًا؟ ولماذا يكون ادعاء العلمية والصواب المطلق حكرًا على هذا المفكر أو الفيلسوف أو ذاك ما داموا جميعًا أعملوا عقولهم من خلال قدرات نسبية ومعرفة غير كاملة بالحقائق.. ثم أصدروا حكمهم بعد هذا؟

ليس ثمة فصل في هذا المجال.. كما هو الحال في أيٍّ من مجالات الفكر الوضعي فيما يسمى بدائرة العلوم الإنسانية التي يحلو لرجالاتها ادعاء العلم المطلق، وأن ما يطرحونه من فلسفات هو بمثابة كشف نهائي لسنن العالم والحياة.. على العكس من رجالات العالم المختبرين الذين علمتهم مناهج بحثهم العلمية حقًّا أن يتواضعوا فلا يقعوا في مظنة الادعاء.. والمسلم الجاد يرفض وصاية أحد من الوضعيين، ويرفض تصنيفهم للناس إلى رجعيين وسكونيين وتقدميين، كما يرفض تصنيفهم للحقائق والسنن والنواميس؛ لأنهم كما يصفهم القرآن ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ [النجم:٢٣].

والمسلم الجاد مقتنع حتى آخر قطرة من دمه، وأعمق خلية في دماغه، أنه يختار بإسلامه أكثر المواضع حركية وتقدمية في مسيرة التاريخ ونواميس الكون وخرائطه.. وأن جهاده الذي هو بمثابة ثورة دائمة، إنما هو إستراتيجية الحفاظ على هذا الموقع، ودعوة الإنسان في مشارق الأرض ومغاربها إلى اختياره.. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى].

* * *

هندسة جمالية للثقافة:

وماذا عن المسار الثقافي في قرن بلغت فيه إمكانات التخطيط والبرمجة والدقة المنهجية آفاقًا بعيدة.. ونحن لا نزال في قطاعات واسعة من معطياتنا الثقافية، نتخبط في الفوضى والارتجال واللامنهجية في وقت يتوجب علينا أن نستفيد إلى أقصى مدى ممكن من كل ما تضعه تحت أيدينا هذه الإمكانات من أجل أن نختصر الزمن الذي يفصلنا حضاريًّا عن الآخرين، ومن أجل أن نوفر في الجهد الذي نحن بأمس الحاجة إلى سعراته لمواصلة السباق الدءوب..

إن الحديث في (منهجية) المسار الثقافي وضروراته يطول ويتشعب؛ ومن ثم سأكتفي ببعض الملاحظات المتواضعة علها تلقي إضاءات كاشفة على جوانب من المشكلة المنهجية، وتنير جانبًا محدودًا من طريقنا إلى المستقبل.

إنه يتوجب على المفكر الإسلامي الحديث أن يغدو (مهندسًا) يلتزم قواعد التقابل والتناظر والتناسب، ويعمل بموجب التوزيع الرياضي الصارم للأبعاد والمساحات، ويدرك أن (العمل الفكري) لا يستوي على سوقه إلا بأن يُلْتَزَم فيه شرطان أساسيان هما (العلم) و(الجمال)، أو المحتوى، والأسلوب، أو كما يقول قدماؤنا: (المعنى) و(المبنى). إلا أن المطابع – للأسف- تقذف لنا بين الحين والحين كتبًا ومؤلفات من هذا النوع وتختفي قيمه الواضحة المحددة وراء ركام من الكلمات والعبارات (الإضافية) التي لا تصل بالقارئ إلى أهدافه إلا بعد أن تجتاز به عشرات المنحنيات والدروب المعوجة.. وعندما يصل يكون قد أرهق.. غيرَ مستعدٍّ لتقبل الحقيقة النهائية التي سيكشف عنها النقاب آنذاك!!

وإذا كان هذا مباحًا لكتاب الأجيال الماضية.. حيث لم تكن أساليب البحث

الفكري ومناهجه قد نضجت واكتملت، فإنه يعد خطيئة كبيرة في العقود الأخيرة التي بلغت فيها تلك الأساليب والمناهج حدًّا واضحًا من النضج والاكتمال، وانتشرت في أنحاء الأرض بحيث أصبحت بداهاتها وقواعدها في متناول الجميع.

فإذا ما أضفنا إلى هذا ما يتميز به عصرنا الراهن من سمات أبرزها السرعة التي تتطلب التركيز، والتوغل البعيد في ميادين العلوم جميعًا مما يستلزم طرح أفكار وسبر أغوار، بعيدًا عن الترهات البلاغية والمبالغات الإنشائية، كان لنا أن نعرف مدى ضرورة أن يتحول كل كاتب منا إلى (مهندس) يعتمد أدوات (اللغة) المناسبة لإيصال أكبر قدر من الأفكار إلى عقول المثقفين ونفوسهم؛ إذ يجب أن يكون هناك ترابط عضوي وتسلسل منطقي بين الكلمات والجمل والفقرات والفصول، بحيث إن أي تغيير في وضع واحدة منها، تقديمًا أو تأخيرًا، يقود إلى تفكك في البحث واضطراب في صياغته، رغم أن أبحاثًا كثيرة تطرح، ولشدة تفككها وعدم تماسكها، فإن بإمكاننا أن نجري تغييرًا في مواضع لكلماتها وجملها وفقراتها وفصولها دون أن يلحق بالبحث أي أذى، تمامًا كما يبني إنسان ما بيتًا كثير الحجرات والردهات، وهو لا يعرف عن علم الهندسة المعمارية شيئًا، ومن ثم فإن التفكك والفوضى، وانعدام التناظر واختلال التناسب، سيمكِّن أيِّ إنسان من أن يجري تغييرًا في التصميم المرتجل دون أن يلحق بالبيت أيَّ أذى.

إن الكلمة الزائدة التي لا تخدم معنى في الجملة يجب أن تستبعد، والجملة العابرة التي لا تأخذ مكانًا مناسبًا في الفقرة يجب أن تلغى، والفقرة المرتجلة التي لا تؤدي دورها البنائي إزاء رفيقاتها يجب أن تهمل، ومجموع الفقرات التي لا تحمل في طياتها فكرة جديدة أو عنصرًا أساسيًّا في البحث، يجب ألا يأخذ أية مساحة على الورق..

ليس هذا فحسب بل إن البحث بمجموعه، إن لم يضف جديدًا إلى ميادين الثقافة الإسلامية، يجب ألا يهدر فيه أي جهد بإمكانه أن يصرف في طرق باب جديد، أو التحرك إلى أفق لم يصل إليه أحد قبلا، أو يكشف عن حقيقة نحن في أمس الحاجة -في السباق الزمني الراهن- للكشف عنها.. والمؤمنون كما يصفهم القرآن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ

﴿فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون]، وأي خير أكثر من أن ندخر جهودنا وطاقاتنا الخلاقة لكي نسارع بها في ميدان الفكر، بدلا من أن نجتر الأبحاث المتشابهة ونبدأ فيها ونعيد.. وبدلا من أن نعالج الموضوع الواحد أكثر من عشرين مرة ونحن نتمطى أو نتثاءب ونعاني الملل، تمامًا كما يحدث لمن يصلي الجمعة فيستمع إلى خطبةٍ أصبحت – لتكرارها- تبعث على الخدر وتدفع إلى النوم دفعًا؟!

ولنتصفح على سبيل المثال أية مجلة إسلامية؛ فإننا سنجد- إلا في قلة نادرة منها- أبحاثًا وموضوعات مكررة، وبخاصة تلك التي تنشر في (المناسبات الإسلامية) كالمولد والهجرة والإسراء ورمضان والحج والأعياد.. وهي موضوعات تحمل في طياتها خطيئتين بحق الفكر الإسلامي والقارئ المسلم، أولاهما: إنشائيتها الفاضحة وعدم احتوائها على قدر كاف من الأفكار والتصاميم الذهنية، وثانيتهما: تكرارها الآلي وتضييعها لجهود ما كان لها أن تضيع لولا هذا التكرار.

وليس معنى أن يكون المفكر المسلم (مهندسًا) دعوته إلى التخلي عن (القيم الجمالية) في معطياته أبدًا.. إن (الجمالية) هي إحدى مرتكزات الهندسة نفسها، فالهندسة – كما هو بديهي- ليست نقيضًا للجمال، بل إنَّ الرياضيات في أساسها- وهي التي أقيم البناء الكوني وفق مقولاتها – تعد بذاتها تناسبًا جماليًّا باهرًا؛ ومن ثم يتوجب على المفكر المسلم ألا يغفل – وهو يطرح أفكاره وفق أشد المناهج صرامة في هندسيتها - عن المتطلبات الجمالية التي يقتضيها المنطق الهندسي نفسه.. وهي متطلبات ترتكز على (لغة) قلت نظائرها بين اللغات، تتيح للباحث مجالا انتقائيًّا واسعًا لتوصيل (أفكاره) بالأسلوب المتماسك الواضح الجميل.. ابتداء باختيار (الكلمات) المناسبة وانتهاء (بالنفس) اللغوي الذي يعطي للبحث شخصيته (الفنية) المستقلة، مرورًا بالتراكيب الجميلة والعبارات والفقرات والفصول.

إن بعض مثقفينا قد ابتلوا للأسف بالنظرة التجزيئية للمواقف والأفكار والأشياء، وعدموا الرؤية الشمولية التي لا يتم بدونها تقويم موضوعي لأية قضية من القضايا المتجددة في ميادين الفكر والحياة.. وهؤلاء لا يستطيعون إلا أن يفصلوا بين الفكر

والجمال، ويقولون: إما هذا أو ذاك.. إما عطاء فكريًّا جافًّا جفاف القوانين صارمًا صرامة التحليلات الفقهية، وعرضا للحقائق الإنسانية والتاريخية بأبسط الأساليب وأقربها إلى ذهن القارئ، مهما كانت على درجة من الفجاجة والبدائية.. وإما كلامًا فنيًّا إنشائيًّا يعتمد مقولات البلاغة وتهاويلها وزخرفها، ويطيل الطريق على القارئ بهذه التهاويل وتلك الزخارف التي لا تحوي في طياتها قيمًا حقيقية ولا أفكارًا جادة..

* * *

بين التراث والمعاصرة:

وما دمنا بصدد الحديث عن المسار الثقافي، فإنه يتوجب علينا أن نسأل أنفسنا، أين الأدباء الكبار في عطائنا الإسلامي المعاصر؟ لماذا لم يبرز شاعر كبير أو روائي كبير أو ناقد كبير، كبير على المستويين العربي والإسلامي والعالمي على السواء؟.. لماذا برز هؤلاء عبر كل المذاهب والاتجاهات، دينية ووضعية ولم يبرزوا عندنا؟

إن أي واحد منا يستطيع إذا شاء أن يعثر على عمل فني أو أدبي كبير يعبر عن الموقف اليهودي أو المسيحي أو القومي أو الوطني أو اللوني أو الطبقي.. أعني عملا كبيرًا بمعنى الكلمة، شكلا ومضمونًا.. في الرواية.. في القصيدة.. في المسرحية.. في النقد.. وفي أي فن يعتمد الكلمة المعبرة جسرًا لنقل التجربة والرؤية البشريتين إلى الآخرين..

من منا لم يسمع – على سبيل المثال- بشاعر المقاومة الفرنسي (أراغون) وبالقاصّ الروسي (غوركي)، وبالروائي الماركسي (شولوخوف) أو غريمه الليبرالي (باسترناك) أو بشاعر الشيوعية (مايكوفسكي)؟ ومن منا لم يسمع برواية (جيوروجيو) (الساعة الخامسة والعشرون) ذات النفس اليهودي الخفي، أو بقصة (هنري سيرويا) (الحقيقة ولدت في المنفى) ذات الإيحاء المسيحي الشاعري العميق؟ وغير هؤلاء من الذين لم نورد أسماءهم إلا على سبيل المثال، عشرات بل مئات..

لا يقل أحدكم: إن هذا بسبب هزائمنا المستمرة في العقود الأخيرة، وبسبب

الضغوط الثقافية والسياسية الهائلة التي لا تطاق، والتي سلطت بكل أسلوب لسحق أي نشاط إسلامي وقتله في المهد. فهذا الكلام غير مقبول لأن الأدباء الكبار يبرزون دائما في قلب الهزائم.. وعلى وهج النار المحصة تلتمع قرائحهم كالنجوم الوضاءة في أعماق الليالي لكي تبث ضوءها الأزرق الجميل على الكائنات، وتمنح إبداعها وروعتها لكل راء.

ولا يقل أحدكم: إن ذلك يكمن في موقف الإسلام نفسه.. فمن العبث - وقد انتصر الإسلام بقوة (الكلمة) القرآنية المعجزة في قدراتها التعبيرية، وفي جماليتها الساحرة شكلا ومضمونًا - أن نناقش رأيا سخيفًا كهذا!!

وباستطاعتنا جميعًا، بعد تهافت هاتين الحجتين، أن نبحث عن الأسباب.. ولعل أكبرها يكمن في مثقفينا أنفسهم، في تكوينهم الفكري وتجربتهم النفسية، وفي قوائم الكتب التي يطالعونها.. إن معظم هؤلاء الذين نسميهم – تجاوزًا- بالمثقفين لا يقرءون - منذ لحظة تفتح وعيهم على القراءة، واتصالهم الوثيق بالكتاب - إلا الكتب التراثية.. ولا يتوسعون وينفقون ساعاتهم الغالية إلا في نطاق معطيات القرون الأولى.. فإذا ما قرءوا أدبًا فإنهم لا يقرءون إلا للجاحظ أو ابن المقفع أو ابن عبد ربه أو الأصفهاني أو ابن الجوزي.. وتراهم غادين رائحين إلى الكازينوات والمكتبات والنوادي وهم يحملون - محنيي الظهور، منكسري الأنفس- مجلدات التراث المغبرة الصفراء، وتلوك ألسنتهم باعتزاز كتاب (الحيوان) أو (صفة الصفوة) أو (البيان والتبيين)..

إنهم يعيشون في عصر آخر غير عصرنا.. لقد توهموا أو أوهموا، أن الفكر الحقيقي لا يخرج عن نطاق تراثنا أبدًا، وأن الذي يريد أن يتثقف – بحق- فإن عليه أن يتجاوز معطيات الإنتاج المعاصر وألا يثقل نفسه به لحظة واحدة، فكرًا كان أم أدبًا أم فلسفة أم فنًّا.

والحق أننا نستطيع أن نتلمس في نفوس هؤلاء إحساسًا مزدوجًا ما كان لهم أن يقبلوه لحظة واحدة.. إنهم – من جهة- يرون أية مطالعة في معطيات الفكر والأدب الحديث خطيئة ودنسًا لا ينسجمان وحسهم ونظرتهم الروحية إلى الحياة..وهم من جهة

أخرى يرون المطالعة في كتب التراث نوعًا من التطهر والتقوى يتقربون بها إلى الله.. فما دمت أرهق نفسي في مطالعة كتاب – يقول أحدهم- فلماذا أقرأ كتابًا يبعدني عن الله؟ ولماذا لا أجعل عملية المطالعة نفسها جزءًا من عبادتي وتقواي؟ ثم ماذا تكون النتيجة؟ إنها هذا الفراغ المحزن الذي نراه في عطائنا الأدبي المعاصر.. إن هؤلاء المثقفين – وقد عاشوا عصرًا غير عصرهم، وتعاملوا مع كلمات وتعابير كانت مناسبة لبيئتها، مستجيبة لمتطلباتها التعبيرية، لكنها غدت غير مناسبة لبيئتنا نحن، بل مستعصية على متطلباتنا وبداهاتنا التعبيرية – سرعان ما يجدون أنفسهم بعد رحلة سنين طويلة في ميدان العلوم النقلية وكتب التراث غير قادرين بالمرة على أن يكتبوا حرفًا واحدًا أو يبدعوا أثرًا أدبيًّا باقيًا.. وكل ما يستطيعه أي واحد من هؤلاء، بعد كل ما جناه من سني الكد والسهر والعناء، هو أن يبدي إعجابه المتزايد بديباجة ابن المقفع، وجزالة الجاحظ، ونقدات ابن الجوزي!!

وهذا التشبث (المتخفي) بالتراث، والانقطاع المحزن عن تيار الفكر المعاصر وصخبه واندفاعه وحيويته وتمخضه الدائم، لا يسلب مثقفينا هؤلاء القدرة على التعبير أو يجردهم من أداة التواصل الإبداعي مع الناس فحسب، إنما – وهذا هو الأخطر- ينفي أية تجربة وجدانية أصيلة في نفوسهم، ويجمد أي تفجر إبداعي في تجربتهم الذاتية، ويصدهم بالكلية عن النظر إلى أعماقهم حيث يكمن الموقف الحقيقي الذي يصنع الآداب ويبعث الفنون؛ ومن ثم فهم يخرجون على الناس بعد رحلتهم الخارجية (الساكنة) مع التراث وقد انفصمت شخصيتهم، فانهال غبار القديم على ذواتهم الباطنية الأصيلة، ولم يعودوا يرون أو يتعاملون إلا مع شخصيتهم الثانية المتخفية المعلقة دوما على رفوف المكتبات القديمة، والمتأبطة- أبدا- كتب أناس ماتوا منذ مئات السنين ولم تعد معطياتهم تبعث رجفة الإبداع والتدفق في نفوسنا؛ لأنهم عاشوا في عصر غير عصرنا وكتبوا بلغة غير لغتنا.

باختصار.. إن مثقفينا لم يمتلكوا مقومات التجربة الإبداعية الذاتية التي تتفجر عن الرؤية الإسلامية – قصة أو رواية أو مسرحية أو قصيدة أو عملا نقديا- التجربة

التي كتبها التحرك الطويل في الدهاليز المظلمة، وحنطتها الروح المتخفية الساكنة، وفصمها عن الواقع المتغير ذلك التشبث بالعصور القديمة والذي يقرب بأصحابه حينا من الوثنية الفكرية والعبودية التي لا تعرف التحرر من أسر التراث.

والبديل الذي نسد به بعض مساحات فراغنا الأدبي المعاصر، معروف.. أن يتحرر مثقفونا من عبوديتهم للتراث، وأن يستأصلوا من نفوسهم عقدة الخطيئة إزاء معطيات الأدب العالمي الحديث.. أن يعيشوا عصرهم ويعتمدوا لغتهم.. أن يعودوا إلى ذواتهم لكي ينظروا ويعمقوا وعيها الباطني وتجربتها الإبداعية التي تكمن وراء أي عمل أدبي أو فني كبير.. وقد علمنا رسول الله ﷺ أن: «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها»...

ولا يحمل هذا الكلام أي معنى لدعوة ترفض التراث بالكلية؛ لأن معنى هذا هو التنازل عن شخصيتنا التي تميزنا عن الأمم، والتنكر لماضينا الذي نستمد منه القدرة على البقاء.. ولن يقول بهذا إلا خائن أو مهووس.. والذي نطرحه شيء غير هذا بالمرة.. ويبقى البديل.. هو أن نعيش عصرنا من خلال رؤيتنا الإسلامية وحدها.. وألا يستعبدنا التراث.

* * *

الكلمة... وسلاح التغيير:

ونحن نتحدث عن الأديب الإسلامي تحضرنا مقولة سارتر: (**إذا لم يكن الأديب حليفا للمظلومين فلن يكون إلا شريكا للظالمين**)..

ويسأل المرء نفسه: من أحرى من الأدباء الإسلاميين بالتزام هذه المقولة؟ من أجدر منهم بمعرفة حقيقة أنهم إن لم يكونوا مع المظلومين كانوا مع الظالمين؟

إنه لا يوجد موقف وسط بين الحق والباطل، ساكن غير متحرك.. إن الإنسان والأديب، بالأحرى (الكلمة)، فعل - كما يقول سارتر نفسه - لا يعدو أن يكون مع الظالم أو المظلوم، تبريرا للظالم أو إنصافا للمظلوم.. إن الكلمة (تغيير)، هي في فاعليتها تذكرنا بحديث الرسول ﷺ: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان**»!! فالكلمة هي الحد الوسط بين

اليد وبين الرفض الباطني الصامت. وهذه الأفعال الثلاثة – على كل حال – تمتلك فعلا قديرا على التغيير.. إن الرفض الصامت هو الآخر (عمل) من أجل التغيير.. تهيئة وتمهيد للكلمة الغاضبة واليد الضاربة.. ومن ثم فإن موقف الأديب هو تحميل الكلمة كل ما تستطيع حمله في عملية التغيير.. وهو تغيير (ديناميكي) أبدي مادام هناك ظالم ومظلوم.. وقد طرح رسولنا ﷺ هذا البعد الديناميكي لكي يغطي كل زمان ومكان دونما توقف. والمعروف والمنكر يصطرعان ويتبادلان المواقف كاصطراع الليل والنهار وتبادل الشمس والقمر.. والجهاد ماض- بتعبير الرسول ﷺ - إلى يوم القيامة..

وهنا نلتقي مع كل حركة (التزام) تسعى إلى تحميل الكلمة مسئوليتها في تاريخ الإنسان وحركته صوب الحق والعدل، ولكننا نفترق مع هذه الحركات (كالماركسية والوجودية..) في تحديد طبيعة الظلم ومساحته، فالشيوعية ترى مساحته مقصورة على حاجة الإنسان إلى الطعام.. على طاغية يتخم وفقير يموت جوعا.. والوجودية تراها كذلك بدافع مركب نقصها إزاء الماركسية وتضيف إليها مسألة (الحرية) المتبادلة بالالتزام.. والكلمة تجيء إذن لتعزيز حرية الإنسان وهو يناضل من أجل أن يسمح له أن يكون (موضوعا) ديناميكيًّا (ذاتًا) ساكنة (إستاتيكية).. دون أن يدري هؤلاء أن إطلاقًا كهذا يقود إلى ارتطام الحريات والمشاريع والذوات المتحركة اعتمادا على فردية الإنسان وتوحده وعدم تشابهه- أساسًا- مع الآخرين..

أما الإسلام فيرى أن الظلم الواقع بالإنسان يشمل دائرة أوسع بكثير من دائرة الحاجات الأساسية المكبوتة، أو الحرية التي تحيل الإنسان إلى (مشروع) دائم التغيير والتمخض دون أن يرتكز على قيم ثابتة ومحور واحد، مما يؤدي حتما إلى التشتت والتميع والضياع الذي نجده واضحا في التطبيق العملي للوجودية وفي الترجمة اليومية للنظريات التي يقول بها الوجوديون..

الإسلام يرى أن (الظلم) هو في إخراج الإنسان عن موقعه (الطبيعي) والأساسي في خارطة الكون، في تدمير انسجامه مع نواميس العالم والخليقة، في تحويله عن (حريته) و(توازنه) و(توحده) إلى العبودية والتأرجح والتمزق.. وهذا إنما يجيء – دوما- على

يد (الفئة) أو (الطبقة) أو (الجماعة) أو (الفرد) الذي يسعى إلى إلحاق هذه المآسي بالإنسان من أجل أن يتأله هو في الأرض ويحقق مطامحه على حساب بني آدم... وهو - أو الطبقة أو الفئة - لن يهمه - أو يهمها - النتائج المتأتية من جراء هذا (الظلم) الواقع على الناس بإخراجهم عن مواقعهم الطبيعية وانسجامهم وتدمير توازنهم وحريتهم، ما دامت النتيجة في صالح الفئة أو الطبقة التي انتزعت لنفسها حق القيادة والتأله، وسحبت صفة العبودية على جميع الناس لكي يتحولوا إلى قطيع لا تزيد فاعليته في الأرض على تقديم عطائه وجهوده ثمارا سائغة للقلة المترفة المستعبِدة.. ومن ثم فإن دور الأديب المسلم والمفكر المسلم هو الحركة الملتزمة جانب المظلومين جميعا من أجل عودتهم إلى مواقعهم الطبيعية وانسجامهم، ومن أجل استرداد حريتهم وتوحدهم وتوازنهم، والجهاد الدائم ضد كل الطواغيت الذين يسعون في الأرض فسادا ويؤلهون أنفسهم من دون الله، ويستعبدون الناس ظلما وزورا.. هذا الموقف الملتزم الذي يعمل على أوسع مساحة عرفها الصراع بين الظالمين والمظلومين، مرورا بمسألة الطعام والشراب والقيد الاجتماعي والحرية، وانتهاء بالأفق الواسع الذي يختفي فيه الظالمون جميعا، وحتى يتحرر المظلومون من قيود القهر والعبودية.. ومن هنا نجد تنبيه القرآن الكريم دوما إلى أهمية الآخذ على يد هذه الفئة الظالمة وإلا عمت البلوى كل الناس.. ظالمين كانوا أو مظلومين ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال].

ومن هنا- كذلك- أكد القرآن على أن الشعر الحقيقي هو الشعر الملتزم قضية الإيمان والانتصار على الظلم ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ [الشعراء].. وهذا هو أصدق تعبير عن مسألة التزام الكلمة، لكونها لا تحمل إيجابيتها إلا بأن تكون (فعلا) يلتزم ويثور.. يؤمن ويتحرك.. ويظل دائما على خط المظلومين حتى يتحقق لهم الانتصار على الظالمين...

* * *

والشباب المسلم هم الذين سيبدءون صياغة العقود الأولى من القرن الجديد.. وهذه الكلمات موجهة إليهم.. ومن دمائهم الحارة وإخلاصهم العميق تكتسب دفقها وإخلاصها ووضوحها..

تماما.. كما انتصر أجدادنا عبر معارك القرون الماضية.. فإننا سننتصر مرة أخرى عبر معارك القرن الجديد، بمجرد أن نستكمل الأسباب: إيمانا جادًّا، وعزيمة صادقة، وعطاء دائما، وإعمالا مبرمجا للقدرات والطاقات التي منحنا الله إياها.. وما أكثرها وأغزرها لمن يعرف كيف يفيد من منحة الله!!

إنه ليتوجب علينا أن نتعلم من تجربة التاريخ.. وإن القرآن الكريم ليذكرنا بهذا المرة تلو المرة ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام] ، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل]، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم:٤٢]... وحينذاك سنعرف، كيف نفيد من عامل الزمن، وكيف ننطلق إلى أهدافنا بإدراك أشد إضاءة وفهم أكثر عمقا.. ولن يستطيع أحد أن يذلنا ويفرض علينا مواقع التبعية والصغار.. فالذي تخرجه مدرسة الأربعة عشر قرنا لا يمكن أن يذل ويخضع، والذي يتربى في جامعة القرآن لا يمكن إلا أن يكون عزيزا ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

إن الأجيال التي سبقتنا على الطريق الطويل لم تألُ جهدًا في هذه الجبهة أو تلك، وإن علينا أن ننطلق عبر العقود القادمة بسرعة أكبر بما نملكه من تراكم في الخبرة، وبما تحتمه علينا معضلة تجاوز الفارق الزمني الحضاري بيننا وبين الخصوم.. وبما يأمرنا به ديننا من ضرورة المسابقة في العطاء حيث تغدو في معاييره الأصيلة جزءًا من مطالب الإيمان ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠] ، ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:١١٤] ،﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون].

وإذن فإن ثمة ما يملأ قلوبنا بالأمل ويترع نفوسنا باليقين.. إن هذا القرن-إذا عرفنا كيف نعد العدة- سيكون قرنًا أكثر من سوابقه أهمية وحسما في تغيير خارطة العالم، فيما يعيد لهذه الأمة المبعثرة الممزقة المنكودة الكثير مما فقدته.. بعد أن أصبحت في قعر الهزيمة بتسلط اليهود على رقاب المسلمين؟!

إن العالم كله ينتظر اليوم إشارة الخلاص..

ليس ثمة مكان في هذا العالم لا يتعذب اليوم.. إنه - وقد آثر منذ قرون بعيدة التمرد على هدى الله وشريعته - كان لابد أن ينال عقاب تمرده وعصيانه..

إنه عقاب الفطرة لمن يتمرد على الفطرة..

وعقاب الطبيعة لمن ينشق عن نواميسها..

وعقاب الكون لمن يبحر ضد سننه..

وعقاب الله لمن يتحدى كلمته التي لا رادَّ لها..

لقد طف الصاع وبلغ السيل الزبى.. وإننا بمجرد أن نمر مسرعين على صحف العالم ووسائل تعبيره.. سنرى بأم أعيننا ونلمس بكلتا يدينا ما يعانيه العالم من عذاب وما يحيط به من فساد، فها هي المقولة القرآنية تبرز ثانية في قرننا هذا ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١] ولن يكون الرجوع إلا بهذا الدين..

إن العالم كله ليس بأقل حاجة من المسلمين أنفسهم إلى (منهج) يعرف كيف يعلو بهم على العذاب والفساد.. كيف يضعهم في قلب دنيا جديدة نظيفة التربة، نقية الهواء، ممتدة الآفاق.. وإن القرن الخامس عشر هو قرن التجربة حقا.. وإنه لجهد مزدوج يتوجب على المسلمين أن ينوءوا بحمله الصعب والعودة بأنفسهم وبالعالم كله إلى مرافئ الإيمان السعيدة المتوحدة.. من أجل حياة أجدر بالإنسان..

فليكن القرن الخامس عشر قرن الكدح اللاحب والعطاء الموصول والبذل السخي

الذي يكسر الحلقة المفرغة التي تحيط بالعالم..ويخرج به من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

* * *

فيا أيها المسلمون في كل مكان..

إنكم أحفاد أولئك الرواد الكبار الذين ملأوا أربعة عشر قرنا من الزمن بالإنجاز.. والإبداع.. والمجازفة.. والكشف..والتحقيق.. والانتصار..

ولن يعجزكم شيء إذا خلصت النية واشتعلت فتيلة الإيمان.. إن جيلا يتسلم الراية ليمضي بها صوب قرن جديد لهو جيل سعيد بالموقع الذي وضعته إرادة الله فيه.. وإنه لشرف عظيم أن تحمل سواعدكم كتاب الله وسنة رسوله إلى عالم مرهق مكدود، يتحرك منذ زمن بعيد في طرق مسدودة ويطرق أبوابًا مقفلة لن ترد ولن تستجيب.. ولن يكون الباب الوحيد المفتوح سوى باب هذا الدين.. وإنه لقدير حقًّا على أن يستوعب البشرية المطحونة كلها.. دخولا إلى الساحة الوضيئة المتوحدة التي تطهر وتسعد وتزكي..

ولن يدخل أحد من بابكم الكبير ما لم تعلموه كيف يكون الدخول..

* * *